صورة الجزائر الثائرة في شعر مفدي زكريّا

د.أمحمد يقوته نور

جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم/ الجزائر

ملخّص المداخلة:

تتحوّل صورة الجزائر الثائرة في شعر مفدي زكريّا عبر تطوّر وقائع الصّراع الحربي والسّياسي مع المحتلّ الفرنسي الصّليبي؛ فمن صورة الجزائر المحتلّة، إلى صورة الجزائر القرآنية المجاهدة، فصورة الجزائر المستشهدة، ثم صورة الجزائر المنتصرة الحرّة، ويعدّ التناصّ التّراثي متمثلا في القرآن الكريم وفي التاريخ العربيّ الإسلاميّ، أحد الآليات التي توسّلها مفدي زكريّا لربط صورة الجزائر الثّائرة بمرجعيتها العربيّة الإسلاميّة.

من هنا، سنعمد –في مداخلتنا– إلى عرض صورة الجزائر الثّائرة من داخل نصوص مفدي الشّعريّة، وقراءة هذه النّصوص في ضوء آلية التّناصّ التّراثيّ الّتي وظّفها شاعرنا لإثراء نصّه وتأصيله في إطار الثّقافة العربيّة الإسلاميّة.

تتماهى الذات والموضوع/ القضية في شعر مفدي زكريّا الثّائر، بالنّظر إلى ما يكنّه شاعرنا لأرض الجزائر من حبّ وتقديس؛ فهي خير بلاد إفريقيا جمالا وقداسة، وحبُّه لها دانى حُبّ الله عزّ وجلّ والعبودية له، يقول[1]:

أرض الجزائر في إفريقيا قُدُسٌ رِحابها من رحاب الخُلد، إنْ صدقوا

أحبُّها مثل حُبّ الله، أعبدها آمنت بالله، لا كُفرٌ ولا نَزَقُ

وهذا التّفاني في حبّ الجزائر يتطلّب تحمّل المعاناة والاستعداد للفداء متى حانت السّاعة، يقول[2]:

سِـــيانِ عنـــدي، مفتـــوح ومُنغلـــق يا سِجنُ، بابُكَ، أمْ شُدَّت بـــه الحَلَـــقُ
أَمِ السِّـــياطُ بهـــا الجـــلاّد يلهبنـــي أمْ خازنُ النار، يكـــويني فأَصـــطَفَقُ
سرِّي عظيمٌ، فلا التعذيب يَسمح لـــي نطقًا، وربَّ ضعافٍ دونَ ذا نطقُـــوا!
طَوعَ الكرى، وأناشـــيدي تُهَدْهِـــدُني وظُلمـــة الليـــل تُغرينـــي، فـــأنطلقُ
والرّوح تهـــزأ بالسّـــجّان ســـاخرة هيهـــاتَ يُـــدركها، أيّـــان تنزلـــقُ
تنســـاب فـــي ملكـــوتِ اللهِ ســـابحةً لا الفجرُ، إنْ لاحَ، يُفشيها ولا الغَسَقُ
روحي! وهبتُك يا روحي، فِدا وطني زُلفَـــى إلـــى الله، لا مـــنٌّ ولا مَلَـــقُ

إنّهُ لسرٌّ عظيم ذاك الّذي يخفيه شاعرنا بين جوانحه، ويأبى أن يبـــوح بـــه لجلاّده. فمن عادة الشاعر الملهم أن يستشرف طلائع الفجر الجديـــد، فتلـــوح لـــه النّبوءة الصّادقة، حين يكون الأمل قد مات في قلوب الجماهير الكادحة المســـلوبة الإرادة تحت نير الاستعباد والاستدمار؛ يقول حمزة بوكوشة: "إنّ للشّعر تنبّـــؤات صادقة تأتي كفلق الصّبح المبين، وإنّ للشّعر وحيا وإلهاما يصدقه الواقع، ولو بعد سنين"[3].

لكنّ تحقّق نبوءة الشّاعر وترجمتها إلى حقيقة متبدّية في الواقـــع مرهـــون بمدى قابلية الجماهير المقهورة لإنجاز الأفعال العظيمة وتقبّـــل التضـــحيات كمـــا الشّاعر، لبلوغ الغاية المنشودة. فدون استرجاع الحريّة والسّـــيادة مســـارٌ طويـــل ومرير من الصّراع الحربيّ والسياسي مع المحتلّ الفرنسيّ الصّـــليبيّ. وتقتضـــي حتمية هذا الصّراع وصيرورة وقائعه الدّامية إلى تحوّل دائـــم لصـــورة الجزائـــر الثائرة لدى شاعرنا؛ فمن صورة الجزائر المحتلّة، إلى صورة الجزائـــر القرآنيـــة المجاهدة، فصورة الجزائر المستشهدة، ثمّ صورة الجزائر المنتصرة الحرّة.

1- صورة الجزائر المحتلّة:

يصرّ مفدي على إدانة مشروع "التمدّن" الفرنسيّ المزعوم في التعامل مع الآخر الجزائريّ المخالف له عقيدة وهويّة وحضارة، واستحالة هذا "التمدّن" الزّائف إلى همجية عمياء مدمّرة لكلّ ما يمثّل الوطن الجزائري إنسانا وحيوانا وأرضا؛ يقول[4]:

هي وصمةُ التاريخ! في أطوائها للعالمين، عن "التمدّن" مظهر
هي لعنة الأجيال! في "أوحالها" أبدا فرنسا، لم تزل تتعثَّرُ
سَل نسوةً، فيها ذُبِحنَ، ورُضّعا واسأل صبايا، فُكَّ عنها المئْزرُ
وسَل المدارس، كيف دُكّ بناؤها وانظر إلى الأحرار، فيها تُقبَرُ
وسَل الحرائق، في لظى نيرانها مُهجُ الكرامِ اصّعّدت تتبخّر
لغة التمدّنِ، للقويّ، ذريعة كاللّصّ –تحت ظلامها- يتستّرُ
والسّلم ستر للنّذالة، باسمها تُؤتى الشرورُ، ويُستباحُ المنكرُ

ومثلما أدان شاعرنا لغة "**التمدّن**" و"**السّلام**" الفرنسيّة المخادعة، فقد أدان لغة قادة الأحزاب الجزائريّة المتخاذلة المتقاعسة عن الأخذ بثأر الجزائريّين المحرّقين والمقتّلين والمنتهكين حُرماتهم وحقوقهم من قبل العدوّ الفرنسيّ الصّليبيّ. حتّى إذا زلزلت بلدة "**الأصنام**"، في شهر **سبتمبر من سنة 1954م**، زلزالا شديدا، عدّ الشاعر مفدي ذلك الزّلزال إنذارا من الله عزّ وجلّ للجزائريين على بعدهم عن عزّة الإسلام وتعاليمه، وعقابا لهم على استسلامهم لعدوّهم وعملائه؛ يقول[5]:

هو الإثمُ، زلزل زلزالها فزُلزلت الأرض زلزالها
وحمّلها النّاس أثقالهم فأخرجَت الأرضُ أثقالها
وقال ابن آدمَ في حُمقه يُسائلها ساخراً: مالها؟!
ألا إنّ إبليسَ أوحى لكم ألا إنّ ربّك أوحى لها !

جرى ما كفى ! هل كفى ما جرَى؟ كفـــى بـــالجزائر مـــا نالهـــا !
فلـــن تســـتحقَّ العـــلا أمَّـــةٌ تُـــولّي القيـــادة أرذالهـــا
وليســـــت ببالغـــــة أمرّهـــــا وجلاّدُهـــــا صـــــار دلاّلهـــــا
ولا خيـــر فيهـــا، إذا لـــم تثُـــر لتَنسِـــفَ، بالنّـــار أغلاَلهـــا

فقد اقتضت رؤية مفدي الدّينية العميقة لقضية وطنه المسلوب، أن يستحضر –في شكل تناصّ إحاليّ"[6]– سياق الآيات الأولى من سورة الزّلزلة، في قول تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥)**﴾[7]. فشاعرنا نقل هذا السّياق من زمنه الدّيني: وهو يوم القيامة، إلى سياق تاريخيّ راهن: هو زلزال الأصنام. فهو يرى أنّ الجزائريّين، أو بعضهم على الأقلّ، قد قارفوا الأفعال السّلبيّة والخطايا نفسها التي تستوجب العقاب الإلهيّ الحاسم. ولا أمل لهم في الخلاص والنّجاة من هذه القيامة الصّغرى إلاّ بالعودة إلى تعاليم القرآن الكريم، واعتناق شِرعة الجهاد لدَحر المحتلّ الفرنسيّ الجائر.

2– صورة الجزائر القرآنيّة المجاهدة:

لكنّ ليل الجزائر الثائرة يمتدّ ويطول، ويغور الفرج في الأفق المعتم، وتزداد عذابات شاعرنا، وتنتابه هواجس الشّكّ والكفر، حتّى إذا جاءت ليلة الإسراء، ليلـــة الفاتح من شهر نوفمبر المباركة، تأكّد الإيمان فـــي القلـــوب، واعتصـــم الشّـــعب الجزائريّ بحبل الله تعالى، لأجل جهاد العدوّ الفرنسيّ الصّليبيّ الكـــافر، ومعانقـــة عقيدة الشّهادة، وبذل الأموال والنّفوس لنيل النّصر والعزّة؛ يقول مفدي[8]:

تباركـــــت، بـــــالخوارق طافحًـــــا وسُبحانَ، من بالشّعب، في ليلة أَسرَى
وكَم كُنتُ، يا رحمنُ، في الشكِّ غارقًـــا فآمنتُ بالرّحمن في الثـــورة الكبـــرى !
وكم كنت بين (الكاف والنّون) حـــائرًا ومُذ قلتها –يا ربّ– جنّبتنـــي الكفـــرا

ولبّـــاك شـــعبٌ، كـــاد يفقـــدُ ظنَّـــه بوعـــدك، لـــولا أنّـــه يحفـــظ الـــذّكرا
ويقرأ فـــي التنزيـــل، عنـــد صـــلاته بأنّـــك، بعـــد العُســـر، تغمـــره يُســـرا
ولقّنتـــــه: أنّ الجهـــــادَ عقيـــــدةٌ طوَى الأزَلُ العُلويّ –في صدرها– سِرّا
وقلت له: كن، قال: وعدك، قلت: خُـــذْ وهَبْتُك –إن آمنتَ بـــالثّورة– النّصـــرا

فلكي يثبت مفدي أصالة الجزائر الثّائرة وشخصيتها العربيّة الإسلاميّة فـــي حربها التحريريّة، المتميّزة من إيديولوجيات الحركـــات التحرّريّـــة فـــي القـــرن العشرين، نراه يمزج خطابه الشعريّ بإحالات عدّة إلى بعض آي القرآن الكـــريم، مبتعدا –في الغالب– عن سياقها القرآنيّ.

فثمّة إحالة –في البيت الأوّل– إلى حادثه الإسراء الدّال عليها قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)**﴾[9]. فقد عمد مفدي إلى تحوير دلالة لفظة "أسرى" الواردة في هذه الآية الكريمة؛ فبعد أن كانت ليلة الإسراء قاصرة –في القرآن الكريم– على فرد ممتاز: هو النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وجاءت تعبيرا عن المواساة بعد المعاناة، وعن جزيل العطاء بعد الصّبر على البلاء، فإنّ شاعرنا جعل دلالة لفظة "أسرى" شاملة للشّعب الجزائريّ كلّه، وخالها بوّابة للجهاد والشّهادة والنّصر.

وفي البيت الخامس، أحال مفدي على قوله عزّ وجلّ: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥)إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(٦)**﴾[10]. فإنّ كانت لفظة "اليسر" في الآيتين الكريمتين تدلّ على الفرج ووفور النّعمة بعد الفقر والضّيقة، فإنّ لفظة "اليسر" –في البيت الشعريّ– خرجت عن سياقها القرآنيّ، لتدلّ على إقبال يوم الجهاد والشّهادة والوعد بالنّصر بعد طول انتظار وترقّب. ثمّ ربط حدوث "الإسراء" و"اليسر" بتحقّق مشيئة

الله عزّ وعلا، وتقديره، فأحال على قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٨٢)**﴾[11].

فإلحاح مفدي الدّائم على التّناصّ مع القرآن الكريم يُبين عن رؤيته الدّينية العميقة لقضية الوطن/الأرض في صلتها بالسّماء، وضرورة ترقّي الجزائر الثّائرة في سلّم الصّفاء الرّوحيّ والرسوخ العقديّ واليقين الإيمانيّ للحظوة بالنّصرة الربّانية، وبلوغ درجة الأمّة القوّام التي يهابها أعداؤها؛ يؤكّد شاعرنا هذه الدّرجات السّامية قائل[12]:

شَـــربتُ العقيـــدة حتّـــى الثّمالـــة فأسلمتُ وجهي لـــرَبِّ الجلالـــه
ولـــــولا الوفـــــاءُ لإســـــلامنا لما قرّر الشّـــعب يومـــا مَنالـــهْ
ولـــــولا اســـــتقامة أخلاقنـــــا لما أخلصَ الشّعب يوما نضـــالهْ
ولـــــولا تحـــــالف شـــــعب وربّ لما حقّق الـــرّبُّ يومـــا سُـــؤالهْ
هـــو الـــدّين يَغمُـــرُ أرواحنـــا بنُور اليقين، ويُرســـي عدالـــه
ويَصـــــنع إيماننـــــا أمّـــــة قوامًا، فتَرْجُفُ منهـــا الضّـــلالهْ

هكذا، مضت الجزائر القرآنيّة المجاهدة تُنازل العدوّ الفرنسيّ الغاشم بقوّتها الإيمانيّة وبعزمها على الفداء بالأموال والنّفوس، والزجّ بقوافل الشّهداء الأبرار في أتون المعركة، من أجل تحرير هذه الأرض العربيّة الإسلاميّة.

3- صورة الجزائر المستشهدة:

تتصدّر صورة الجزائر المستشهدة ديوان "**اللّهب المقـدّس**" عبـر مرثيتـه الفريدة: "الذّبيح الصّاعد". وتكمن ميزة هذه المرثية في خروج مفدي زكريا علـى تقاليد المراثي العربيّة: من تصوير لهول الفاجعة، وفداحة الفقد، وتعـداد لمناقـب الفقيد. فقد ركّز شاعرنا على تصوير بطله الملحميّ لحظة الشّهادة فقـط، ورسـم صورة مفارقة لذلك الموقف المأساويّ الرّهيب الّذي يقفه المجاهد أحمد زبانة فـي تلك اللّحظة الحاسمة من حياته.

فشاعرنا يحيط بطله المقبل على الشّهادة بهالة من ظلال قرآنيّة وأجواءَ روحيّة إسلاميّة، عبر استدعاء رموز دينية شخصيّة ومكانيّة وتاريخيّة؛ وبذلك توسّع مفهوم التّناص في هذه القصيدة، وأصبح "لا يقصر حركة النصّ على النّصوص الأخرى فقط، بل يتجاوزها إلى مظاهر غير نصّيّة كثيرة. فقد يكون التّناصّ إيماءة مباشرة أو غائمة... أو تلميحا إلى شخصية، أو مكان أو حادثة"[13].

فقد وردت شخصية النبيّ المسيح عليه السّلام كرمز جزئيّ في القصيدة، في قول شاعرنا[14]:

قام يختال كالمسيحِ وئيدَا يتهادى نشوانَ، يتلو النّشيدَا
بَاسمَ الثّغر كالملائك أو كالطْـ ـطِفل، يستقبل الصّباح الجديدَا
شامخَا أنفه جلالا وتيهًا رافعا رأسه، يناجي الخلودَا
زعموا قتله، وما صلبوه ليس في الخالدين عيسى الوحيدا
لفّه جبرئيلُ تحت جنَاحيْـ ـهِ إلى المنتهى، رضيًّا شهيدَا

فالنبيّ عيسى عليه السّلام –في القرآن الكريم– كان هدفا لتآمر اليهود العصاة لصلبه وقتله، لولا أن توفّاه الله تعالى، ورفعه إليه بوساطة الملك جبريل عليه السلام[15]، إلى" المنتهى، عند جنّة المأوى، حيث تأوي أرواح الشّهداء"[16].

أمّا البطل "**أحمد زبانة**" فقد اقتيد حقّا إلى الذّبح والقَتلِ، ولكنّه تعالى على جلاّديه، ليقينه بصعود روحه الطاهرة إلى بارئها. من هنا، كان تحدّيه لعدوّه بهدوئه واطمئنانه وتبسّمه، وإبائه، وتساميه وترقّيه، ورضاه بقدره، وحلمه بلقاء ربّه عزّ وجلّ.

وإذا كان الحلم بالتّواصل مع السّماء قد توقّف مع البطل أحمد عند عتبة المناجاة والضّراعة، كما في قول مفدي[17]:

حالما كالكليم كلّمه المجـ ـد، فشدّ الحبال يبغي الصّعودا

فإنّه بلغ، عند النبيّ الكليم موسى عليه السّلام، حدَّ الحلم برؤية الله عزّ وعلا، لكنّه حظي بالتّكليم من دون الرّؤية[18].

ويستمرّ شاعرنا في التّركيز على تصوير لحظة الشّهادة دون غيرها من تفاصيل حياة بطله الملحميّ، وذلك ليدلّ على تحوّل البطل أحمد زبانة من موقع "المفعول به" إلى موقع "الفاعل" في المنظور الإسلاميّ الاستشهاديّ، وتجاوزه طريقة القتل البشعة الشّنيعة: الذّبح بالمقصلة التي أعدّت له، عبر ترقّي روحه الطّاهرة إلى الملإ الأعلى؛ يقول مفدي[19]:

وتسامى، كالرّوح، في ليلية القدْ ر، سلامًا، يشعُّ في الكون عيدَا
وامتطى مذبح البطولة معْ راجًا، ووافَى السّماء يرجو المزيدا

ويحيل شاعرنا –في هذين البيتين– على حادثتين مقدّستين في عقيدة المسلمين؛ حيث يُحيل –في البيت الأوّل– على حادثة إنزال الوحي الإلهيّ في "ليلة القدر"[20]، ليلة ترقّي روح القدس جبريل عليه السّلام بين السّماء والأرض، حاملا رسالة الإسلام. أمّا في البيت الثّاني، فيحيل على حادثة "**المعراج**" أو "**العروج**"[21]، ليلة عُرّج برسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم من المسجد الأقصى إلى السّماء مواساة وتكريما وتفضيلا.

وفي البيت التّالي للبيتين السّابقين، يستبعد شاعرنا ذكر شخصية الصّحابيّ بلال الحبشيّ رضي الله عنه، ويستدعي الوظيفة التي تستحضر صورته في ذاكرة المتلقّي المسلم، وظيفة "المؤذّن" الّذي يتعالى –على المؤمنين– في صومعة المسجد، ويرفع صوته العذب بالأذان في هدأة الفجر، موقظا النّائمين للصّلاة والفلاح؛ يقول مفدي[22]:

وتعالى، مثلُ المؤذن، يتلو كلمات الهدى، ويدعُو الرُّقودَا

ويخرج شاعرنا –في هذا البيت– من دلالة صوت المؤذّن الدّاعي إلى السّكينة والسّلام، إلى دلالة صوت بطله الملحميّ المزلزل للوجود والمُتحدّي للموت وللجلاّد معا؛ في قوله[23]:

صرخةٌ ترجفُ العوالمُ منها ونداءٌ مضَى يهزّ الوجودا:
اشنقوني، فلستُ أخشى حبالاً واصلبوني، فلستُ أخشى حديدا
وامتثل سافرًا مُحيّاك جلاّ دي، ولا تلتثم، فلستُ حقودَا
واقضِ –يا موتُ– فيَّ ما أنت قاضٍ أنا راضٍ، إن عاش شعبي سَعيدَا
أنا إن مُتُّ، فالجزائر تحيا حُرّة، مستقلّةً، لنْ تَبيدَا

إذًا، هو إرهاص الشّهيد أحمد زبانة بالغاية التي استشهد من أجلها، ليقينه بنصرة الله تعالى للجزائر المجاهدة المستشهدة. وقد أضحى الشّهيد أحمد المثل الأعلى للجزائريّين الثّائرين، فتوافدت –بعده– قوافل الشّهداء حتّى تحقيق النّصر على المحتلّ الفرنسيّ الغاشم.

وكانت مساحة التّناصّ مع القرآن الكريم كبيرة في هذا النصّ، لتتواءم مع رؤية مفدي زكريّا الدّينية الإسلاميّة لقضية تحرير الوطن ولعقيدة الشّهادة الرّاسخة عند الشّاعر والمتلقّي معا.

4– صورة الجزائر المنتصرة الحرّة:

لقد امتدّت مسيرة الجهاد لسبع شداد، وكادت تبلغ عشرًا لولا أنّ الله تعالى سَلَّمَ. واستمرأت الجزائر المجاهدة لذّة الشّهادة وإنجاز البطولات الخارقة، لأجل إثبات الوجود، وبعث أمّة الجزائر من جديد، وإعادة كتابة تاريخها بأحرف حمراء، لتَشبعَّ رسالتها الجهاديّة على شعوب إفريقيا المستعبدة، وترهب أعداءها وأحلافهم، وتحطّم أصنام الكفر والاستكبار والإمبريالية في العالم؛ يقول مفدي[24]:

عبرنا على السَّبع الشِّداد نشقُّها ولم تثننَا الأرزاءُ أن نعبر العَشْرَا

ونَفرضُ، في الدّنيا، احترامَ وجودنـــا ونَنشرُ –في أحلافها– الرُّعب والذُّعرَا
ونُلقي دروسًا، في البطولة للـــورى ونترك للأجيال عـــن حربنـــا خُبـــرا
وتُشرقُ، في الدنيا، رســـالاتُ بعثنـــا فتَبيضُّ، بالإشعاعِ، إفريقيـــا السَّـــمرا
ونَعصفُ بالأصنام نَـــذرو حُطامهـــا هَشيمًا، وندعُو للهدى الأنفسَ الحَيرا

فأبطال "نوفمبر" قدّموا دروسا في البطولة والفداء للأجيال اللاّحقة، فغيّـــروا مجرى تاريخ الجزائر المجاهدة إلى الأبد، وآذنوا بميلاد الإنسان الجزائريّ الحـــرّ الأبيّ؛ يقول مفدي[25]:

نـــوفمبر غَيَّـــرت مجـــرى الحَيـــا ةِ، وكنتَ –نوفمبر– مَطلعَ فَجْـــرِ
وذَكّرتنا –فـــي الجزائـــر– بَـــدرَا فَقُمنا نُضـــاهي صـــحابةَ بـــدرِ

فقد جعل شاعرنا "نوفمبر" معادلا موضوعيّا لغَزوة بدر، واختزل تلك الواقعة التّاريخيّة المؤثّرة في مستقبل الإســـلام؛ فـــاكتفى بـــذكر مكـــان الواقعـــة/بـــدر، والفاعلين/صحابة بدر، وترك لذاكرة المتلقّي المسلم مهمّة استدعاء تفاصـــيل تلـــك الغزوة الحاسمة الّتي أعلنت عن ميلاد قوّة جديدة إسلاميّة في شبه جزيرة العرب. وفي المقابل، حظي "نوفمبر" –عند شاعرنا– بمنزلة التّقديس والتّعظيم، لأنّه مرادف للجزائر المجاهدة التي حقّقت معجزة القرن العشرين، بانتصارها –بعد قرن واثنين وثلاثين عامًا– على محتلّ فرنسيّ غاشم وخبيث.

ومجمل القول في تجربة مفدي الشّعريّة الثائرة أنّ الجزائر ظلّت الموضوعة الرّئيسة في إبداعه الشعريّ؛ فهي الحبيبة، وهي الملهمة، وهـــي قطعـــة قدســـيّة، وقصيدة أزليّة مطلعها غرّة نوفمبر.

من هنا، نهض شاعرنا بدور المبشّر والمحرّض العنيد الّذي لا تفُلُّ عزمـــهُ، ولا تنال من همّته عذابات سجون العدوّ الفرنسيّ. ولمّا كان الشّعر أحد أبرز أدوات

الدّعاية للحرب التحريريّة، فقد انصرف مفدي إلى تصوير المواقف البطوليّة والقيم السّاميّة الّتي ميّزت جهاد الشّعب الجزائريّ، ونأى بنفسه عن دور المؤرّخ للحوادث المتعاقبة أو للإنجازات الفرديّة، لأنّ البطل –في تصوّره– هو الجزائر المجاهدة.

وكان إلحاح مفدي على التّناصّ مع القرآن الكريم أو مع التّاريخ العربيّ الإسلاميّ دليلا على حرصه على إثراء نصّه الشعريّ، وتأكيد مرجعيّته العربيّة الإسلاميّة.

وكانت مساحة التّناصّ تتّسع وتضيق في النّصوص الشّعريّة المعروضة في هذه الدّراسة، بحسب حاجة شاعرنا إلى اختزال "الموقف" الّذي هو بإزاء تصويره، أو الإشارة إلى "القيمة" التي يبتغي تركيزها في ذهن المتلقّي.

الهوامش:

1- مفدي زكريّا: ديوان "اللّهب المقدّس"، موفم للنّشر والتوزيع، الجزائر، ط4، 2006، ص26.

2- المصدر نفسه، ص20-29.

3- أنيسة بركات: أدب النّضال في الجزائر، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتوزيع، الجزائر، 1985، ص92.

4- مفدي زكريّا: ديوان "اللّهب المقدّس"، ص137-138.

5- المصدر نفسه، ص273-276.

6- قد تاتي الإحالة معتمدة على استبدال السّياق المرجعيّ للنّصّ السّابق؛ إذ يعمد النّصّ الحاضر إلى استبدال سياق النصّ الغائب بسياق مغاير له. (ينظر: عصام حفظ الله واصل، التّناصّ التّراثيّ في الشّعر العربي المعاصر –أحمد العواضي أنموذجا–، دار غيداء، الأردن، ط1، 2011، ص134).

7- سورة الزلزلة: 1-5.

8- مفدي زكريّا: ديوان "اللّهب المقدّس"، ص309-310.

9- سورة الإسراء: 1.

10- سورة الشّرح: 5-6.

11- سورة يس: 82.

12- مفدي زكريّا: إلياذة الجزائر، موفم للنّشر والتوزيع، الجزائر، 2001، ص87.

13- عليّ جعفر العلاّق: النّصّ والتلقّي، دار الشّروق، الأردن، ط1، 1997، ص132.

14- مفدي زكريّا: ديوان "اللّهب المقدّس"، ص9-11.

15- تفاصيل مصير المسيح عليه السّلام مقتبسة من قوله تعالى: ﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)**﴾ (سورة النّساء: 157-158).

16- ينظر: الزّمخشريّ، تفسير الكشّاف، تحقيق محمّد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، ط2، 1977، ج6، ص48.

17- مفدي زكريّا: ديوان "اللّهب المقدّس"، ص10.

18- تفصيل حادثة التّكليم متضمّن في قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)**﴾ (سورة الأعراف: 143).

19- مفدي زكريّا: ديوان "اللّهب المقدّس"، ص 10.

20- مضمون هذا البيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)**﴾ (سورة القدر: 1-5).

21- ينظر: الزّمخشري، تفسير الكشّاف، 169/3.

22- مفدي زكريّا: ديوان "اللّهب المقدّس"، ص10.

23- المصدر نفسه، ص10.

24- المصدر نفسه، ص311.

25- مفدي زكريّا: إلياذة الجزائر، ص67.